الفصل الرابع

الجمهورية

١١ — ٢٣ هجرية (٦٣٢ — ٦٤٤م)

أبو بكر — تمرد الأعراب — الحروب مع الفرس والرومان — وفاة أبى بكر
الفتوح فى كلاة وما بين النهرين وفارس — هزيمة الرومان — الفتوح فى الشام
وفلسطين ومصر — موت عمر

يستدل على تأثير شخصية النبى العربى (ص) على عقول أتباعه أن أحداً منهم لم يصدق لأول وهلة أنه قد مات ، وأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا بسهولة أن الرجل الذى غير معالم شبه جزيرة العرب فى بضع سنوات هو عرضة للنواميس الطبيعية كغيره من الناس ، ولو أنه عاش فى عصر أكثر توغلا فى القدم ، أو لو كانت أقواله[1] التى يشير فيها إلى شخصه الكريم بعيدة عن التمسك بالمنطق العقلى ، لعده قومه على الأرجح فوق مرتبة البشر ، كذلك توهم البعض فى بادئ الأمر عند ما لحق بالرفيق الأعلى أنه فى غيبوبة بيد أن أبا بكر لما استيقن موته خرج إلى القوم وهدأ من هلعهم بقوله : « أيها الناس إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

---

(١) ولعل المثل الآتى أكبر دليل على ذلك وهو أن موت إبراهيم وافق كسوف الشمس فرأى المسلمون فى ذلك معجزة وقالوا إنها انكسفت لموته وسمعهم النبى « صلى الله عليه وسلم » فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة (المعرب)

وما أن انتهى من كلامه حتى أجهشوا جميعاً بالبكاء هلعاً وأسى على فقد نبيهم ؛ وعندئذ أثيرت مسألة من يخلف النبى (ص) فى خلافة المسلمين إذ لم يكن قد ترك قاعـدة معينة للانتخاب ، فانفسح بذلك المجال لوقوع الفتن ونشوب الخلافات .....

ليست رئاسة القبيلة عند العرب وراثية ، إنمـا هى انتخابية محضة ، يراعى فيها مبدأ الانتخاب العام بأجلى مظاهره ؛ ولجميع أفراد القبيلة حق إعطاء أصواتهم فى انتخاب رئيسهم ؛ ويجرى الاقتراع على أفراد أسرة الرئيس المتوفى على أساس الأسبقية فى السن والجاه . وقد روعيت تلك العادة القبلية القديمة فى انتخاب خليفة النبى ، إذ أن العجلة أوجبت الإسراع فى البيعة دون أى إبطاء فانتخب « أبو بكر » على جناح السرعة ، وقد كان يتمتع بتقدير العرب كافة نظراً لـكبر سنه وسمو مكانته بين أهل مكة ، كذلك كان رقيق القلب ، سديد الرأى ، فبايعه « على » وكبار آل البيت غيرة منهم على الدين ، وحبا فى توحيد كلمة المسلمين .

مبايعة أبى بكر

وعند ما تمت البيعة قام أمير المؤمنين خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخـيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، و إن صدقت فقومونى ، الصـدق أمانة ، والـكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ؛ إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، وأطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » .

ولم يكد ينتشر خبر وفاة الرسول (ص) خارج المدينـة حتى ثارت نفوس الأعراب الجامحة ، واشتد هلع المؤمنين المخلصين كما ارتدت بعض القبائل التى لم تتأثر بعد بأثر الإسلام ، وظهر كثيراً من المتنبئين[1] الأدعياء الذين كانوا قد

تمرد القبائل

(١) من هؤلاء الأدعياء : طلحة ومسيلمة (المعرب)

ظهروا فى حياة النبى فى الجهات البعيدة ، وأضحى الدين الجديد فى خلال مدة وجيزة مقتصراً على المدينـة وحدها ؛ وهكذا أخذت « يثرب » على عاتقها من جديد أن تحارب القبائل العربية المرتدة إلى الوثنية . ويمكننا القول أن ارتدادهم عن الإسلام يرجع إلى سببين :

(١) المبادئ الأخلاقية الصارمة التى فرضها الإسلام فرضاً .

(٢) نفور العرب من أداء الزكاة .

ولـكن المسلمين بالرغم من نشوب الثورات حولهم فى أنحاء الجزيرة أظهروا رباطة جأش نادرة المثال ؛ إذ حملهم الإيمان والحماس مرة ثانية على بلوغ القصد مهما كلفهم الأمر ، فكان أول ما اعتنى به الخليفة بعد دفن الرسول أن نظم شؤون الإدارة وقاتل المرتدين . وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته بقليل قد أعد حملة على الشـام للقصاص من قتلة[1] البعثة الإسلامية ولـكنها توقفت عند ما علمت بمرضه ؛ فرأى الخليفة من مصلحة المسلمين أن يواصل العمل على تجهيزها ؛ ولا سيما عند ما بلغه خبر ارتداد قبائل الشمال بعد كارثة « مؤتة » التى قتل فيها زيد بن حارثة . وتنفيذاً لرغبة الرسول من جهة ، وتوطيداً للأمن فى الحدود الشمالية من الجهة الأخرى . أصر الخليفة على إرسال الحملة إلى الشام بالرغم من شـدة حاجته إليها وقتئذ ، ويقال إنه أوصى رئيسها أسامة بن زيد ، بقوله « لاتخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له فسيروا على بركة الله »

وفد أسامة

وفيما كان « أسامة » يسير بجيشه إلى الشمال ، هجم بعض المتمردين على المدينة ولـكنهم ردوا على أعقابهم مثقلين بالهزيمة ، وتحدثنا الرواية العربية أن « أسامة » بالرغم من النصر الذى أحرزه فى الشـام أسرع إلى الحجاز لنجدة الخليفة الذى

حروب الردة

(١) بنو غسان (المعرب)

تمكن الآن من إرسال « خالد » المعروف بالحنكة والبطش لإخضاع القبائل المرتدة ؛ فلم يلبث أن أخضع بعضها كما اشتبك مع البعض الآخر فى عدة معارك منى فيها الطرفان بخسائر فادحة ، ولكنه مع ذلك أوقع بقبيلة « بنى حنيفة » شر إيقاع فى موقعة « اليمامة » وفتك بزعيمها « مسيلمة » الكذاب . و بعد هذا النصر أخذت القبائل الأخرى تعود بالتدريج إلى حظيرة الإسلام .

الحروب مع الفرس

و يحدثنا المؤرخون أن حروب الردة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة قد أدت إلى تصادم المسلمين مع القبائل الرحل الخاضعة لسلطان الحيرة التى كانت تدين وقتئذ بالطاعة والولاء لدولة الفرس . ولو ألقينا نظرة عجلى على خريطة آسيا لا ستطعنا أن ندرك تماماً كيف نشأ فى بادئ الأمر ذلك النزاع الذى تطور بمضى الزمن وأصبح نضالاً مضطرماً فى سبيل تأسيس إمبراطورية واسعة الأطراف . فمن « حجر » فى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة على تخوم كلدة التى كانت عندئذ فى قبضة الفرس إلى غربى القسم الأسفل من الفرات يمتد صقع محدب هو أحد أجزاء صحراء العرب متجهاً إلى البحر الميت و إلى أرض حوران المرتفعة ، ثم يصعد شمالاً إلى تدمر وفى هذا الصقع كانت تهيم كما لا تزال تهيم حتى الآن قبائل رحل ، وهى و إن كانت قد بدلت أسماؤها ؛ إلا أن أخلاقها وعاداتها لم يطرأ عليهما أى تغيير . ومن المعروف أن معظم تلك القبائل كان يدين بالمسيحية فكان من يسكن منها فى الشام « كالغساسنة » خاضعاً للدولة البيزنطية ، ومن يقطن فى الجهة الشرقية « كبنى تغلب » يدين بالطاعة للفرس ؛ ولكنهم جميعاً كانوا مرتبطين بلحمة النسب وروابط الصداقة مع القبائل العربية المجاورة كما كان يسكن « دلتا الفرات » عرب مستوطنون نبذوا حياة البداوة جانباً ، وضربوا بسهم وافر فى الحياة الزراعية ، ولهذا كانت المعارك التى تنشب بين المسلمين و بين القبائل المرتدة انسا كنة على الساحل الغربى للخليج الفارسى تترك أثراً عظيما فى القبائل العربية الخاضعة للفرس . كذلك كانت كلما دارت معارك

فى الشمال قامت القبائل الأخرى بأخذ الثأر لإخوانهم العرب ؛ شأنهم فى ذلك شأن القبائل الهندية عند ما توغلت الجيوش الإنكليزية فى الهند .

أما المنطقة التى يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات منذ أقدم العصور ، فقد كانت هدفا للملوك الذين يتطلعون إلى تشييد إمبراطورية مترامية الأطراف ؛ ولو ألقينا نظرة على خارطة تلك المنطقة لألفينا « دجلة » ينبع من جبال أرمينيا كما ينبع « الفرات » من أعالى طورسوس ، وكلاهما ينحدران جنوبا صوب خليج فارس حتى يتقابلا على بضع مئات من الأميال من البحر ثم يفقدان اسميهما ومعالمهما ، ويتخذان لهما اسماً جديداً هو « شط العرب » .

كذلك كان الجزء الأعظم من المنطقة المحصورة بين هذين النهرين يعرف فى العصور القديمة باسم الجزيرة (ميزوبوتاميا) ؛ أما القسم الأسفل وهو أرض غرينية مسطحة ، فكان يطلق عليه اسم بابل وكلدة ، ويسميه العرب (العراق العربى) . وعلى ضفاف هذين النهرين ازدهرت مدن كثيرة منها نينوى عاصمة ملوك آشور (الواقعة على نهر دجلة بالقرب من الموصل) و « المدائن » عاصمة ملوك الفرس و « بغداد » مقر الخلافة فى القرون الوسطى وعاصمة العراق الحديث . أما نهر الفرات فتقع عليها مدينة « بابل القديمة » و « الحيرة » و « الكوفة » التى شيدها العرب ، وقرقيسيا والرقة ، كما يقع فى شرقى جبال زاغروس فيما وراء دجلة « عراق العجم » الذى يتوسط بلاد فارس الحديثة .

ونعود الآن فنقول إنه لم تكد تنتهى حروب الردة فى شبه الجزيرة حتى اشتبك خالد بن الوليد والمثنى بن حارث الشيبانى فى معارك شديدة مع العشائر الساكنة فى جانب الحيرة انتهت بإخضاعهم .

سقوط الحيرة

كذلك اشتبك حاكم كلدة الفارسى فى معركة رائعة مع المسلمين على الحدود ولكنها أسفرت عن هزيمته . أما الحيرة فلم تلبث عقب مناوشة طفيفة أن أذعنت بالتسليم وحذا حذوها دهاقين كلدة فأبقاهم الخليفة على أراضيهم مشترطاً

عليهم دفع الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما أقر الفلاحين على حالهم ، بيد أن استيلاء المسلمين على الحيرة أدى بحكومة الفرس أن تدرك الخطر المحدق بها من وجود دولة فتية متحمسة على حدودها . ولو كان الفرس وقتئذ قد أوتوا شيئاً من الحكمة و بعد النظر لعززوا حامياتهم الدفاعية ووطدوا دعائم إمبراطوريتهم التى كانت تعصف بها ريح الاضطرابات والفتن ، ولعلهم كانوا أيضاً يستطيعون التفاهم مع العرب ، إذ كانت دولتهم لا تزال على جانب عظيم من القوة وشدة البأس ، فقد كانت تتألف من بلاد إيران الحالية والبختيارية والولايات الصغرى فى أواسط آسيا إلى حدود الصين والهند ؛ كما كانت تبسط سلطانها على العراق والجزيرة ، بيد أن ملك الفرس حشد جيشاً كبيراً وأنفذه لإجلائهم عن كلدة ، وكان الخليفة فى ذلك الحين قد أرسل « خالداً » على رأس جيش كثيف إلى الشام ، كما أرسل « المثنى » على رأس قوة صغيرة إلى فارس ، ولكن هذا لم يلبث أن سحب مراكزه الأمامية وعاد مسرعاً إلى المدينة ليتفاوض مع الخليفة الكهل فى أمر تعزيز قوته فألفاه على فراش الموت . وفى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هجرية توفى أمير المؤمنين بعد أن بقى فى الخلافة سنتين ونصف سنة ؛ وكان ناصع بياض البشرة دقيق تقاطيع الوجه ، نحيف الجسم مع انحناء قليل . والمعروف أنه كان قبل أن يصبح أحد رجال الصحابة المقربين يتمتع باحترام قريش وتقديرها بصفة كونه أحد زعمائها المشهورين ؛ كذلك أكسبته ثروته الواسعة وكياسته الفذة نفوذاً عظيما عند أهل مكة . وكان كسيده بسيطا فى عاداته إلى أبعد حدود البساطة ، رقيق القلب مع صدق فى العزيمة . ومن المأثور عنه أنه قصر جميع أوقاته على إدارة شؤون الدولة الفتية ، ورفاهية شعبها . فكان يخرج خلسة أثناء الليل لإغاثة الملهوفين ، ومساعدة الفقراء والمعوزين . وظل مدة من الزمن بعد مبايعته بالخلافة يعيش من كسبه ، بيد أنه وجد أخيراً أن إدارة شؤونه الخاصة قد تشغله عن أمور الناس ؛ فرضى أن يتناول ٦٠٠٠ درهم سنويا من بيت المال .

ولما حضرته الوفاة أحس بشبهة فيما أصاب من أموال المسلمين فأمر ببيع قطعة أرض كانت له ودفع ثمنها إلى بيت المال .

ذلك هو المبدأ الأخلاقى النبيل الذى سار عليه أقرب المقربين إلى الرسول فى حياته ! !

وكان قد رأى قبيل وفاته أن يستخلف « عمرا بن الخطاب » فرضى المسلمون بمبايعته ، وتعد خلافة « عمر » ذات قيمة عظيمة للإسلام إذ كان الرجل ذا نسيج خلقى وحده ، حازماً ، عادلا ، شديداً فى الحق ، وكان أول ما قام به بعد إعادة تنظيم الإدارة الداخلية فى شبه الجزيرة أن بعث الأمداد إلى « المثنى » ، وكان أول منتدب للمسير « أبو عبيد »[1] الذى تولى القيادة العليا عند وصوله ميدان القتال ، فاشتبك — من غير أن يستمع لنصيحة المثنى — فى معركة دامية فى موقع لا يصلح أبداً للقتال ودارت الدائرة على المسلمين كما جندل « أبو عبيد » قتيلا ، غير أن جند الفرس برغم انتصارهم لم ينتهزوا فرصة هذا الفوز الباهر ، وظلوا متمسكين بمواقعهم حتى حمل عليهم « المثنى » وسد عليهم منافذ النجاة فى موقع يسمى « بالبويب » على فرع يأخذ من غرب الفرات ، وأوقع بهم شر إيقاع ، ثم دخل « الحيرة » عنوة .

وفى تلك الأثناء اعتلى « يزدجرد » عرش دولة الفرس ، وكان شابا طموح النفس ، لم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية أيضاً على اجتياح بلادهم ، فأرسل إلى كلدة جيشاً مؤلفاً من مائة ألف رجل لقتال المسلمين . فلما رأى « المثنى » قلة جيشه انسحب من كلدة إلى حدود الصحراء ، وراح ينتظر وصول الأمداد من المدينة .

واقعة القادسية

وفيما كان المسلمون يترقبون هجوم الفرس من حين لآخر إذ بهم يفقدون قائدهم الكبير الذى فتكت به حمى « كلدة » فتولى أمر القيادة من بعده « سعد

---

(١) هو أبو عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى (الإصابة ج ٤ ص ١٣٠) (المعرب)

ابن أبي وقاص » ، وكان قد جاء على رأس قوة كبيرة لتعزيز جيش « المثنى » فبلغ بذلك عدد جند العرب ثلاثين ألفاً ، وظلت الحرب بين الفريقين سجالا مدة ثلاثة أيام أظهر فيها الطرفان بسالة منقطعة النظير ، وفى اليوم الثالث انتصر العرب عليهم وقتلوا قائدهم وأعملوا السيف فى رقابهم ، وبهذا قررت واقعة « القادسية » مصير كلدة والجزيرة ، فدخلها العرب ثانية دون مقاومة ، وفرضوا على أهلها الجزية عقاباً لهم على نكثهم العهود مع المثنى . وبعد أن تقبل « سعد ابن أبي وقاص » خضوع المدن الواقعة بجوار « الحيرة » زحف على بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسى بقيادة الفرزان والهرمزان ومهران . فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم ففر « مهران » إلى المدائن قاعدة ملكه ، وسار الهرمزان إلى الأهواز فيما وراء سلسلة جبال إيران ، كما اتجه الفرزان صوب « نهاوند » .

ولكن « سعداً » رأى أن الاستيلاء على كلدة لا يتم نهائيا طالما تعسكر جنود الفرس فى المدائن بقيادة مهران ، ولهذا زحف على عاصمة الفرس التى كانت فى موقعها تشبه بغداد ببعدها ١٥ ميلا من أعالى مجرى النهر . وكان القسم الغربى منها يسمى « سلوسيا » على اسم « سلوسيلة » أحد قواد الإسكندر المقدونى ، كما كان القسم الشرقى يسمى « استيسفون » أو « طاق كسرى » ؛ وقد سميت تلك العاصمة بالمدائن لكونها مؤلفة من مدينتين ، كذلك كانت قصور الملوك ودور الأشراف تجمع إلى الجمال وبهاء الرونق الترف والبذخ . وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر الخلابة فى مبدإ الأمر ؛ وتقول لنا الرواية العربية إنه بعد أن حوصرت المدائن ردحا من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابها صاغرة كما أعقب احتلالها خضوع المدن الواقعة فى غربى دجلة . وقد صلى « سعد » صلاة الفتح مع الجند فى قصر كسرى أنو شروان .

والآن وقد أصبح « سعد » حاكما مدنيا عسكريا على العراق (ومن ضمنه

الجزيرة) فقد اتخذ المدائن مقرا لحكمه ونزل فى القصر الملكى كما خصص بعض أجنحته للدوائر الرسمية ؛ وكان يصلى بالمسلمين صلاة الجمعة فى الإيوان الكبير . ومن هذا القصر طفق يدير شؤون الولاية ؛ ولكن ما انقضت مدة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين إلى امتشاق الحسام ، إذ أن ملك الفرس المقيم فى حلوان أنفذ جيشاً كثيفاً لاسترداد المدائن فتقابل الفريقان فى « جلولاء » على بعد حوالى ٥٠ ميلاً من الشمال الشرقى من العاصمة ، فتقابل الفريقان فى « جلولاء » ودارت بينهما معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب .

ويقال إنه لما أرسل « سعد » الغنائم التى كان قد استولى عليها فى المدائن وحلوان إلى المدينة المنورة وشاهدها الخليفة [1] ذرفت عيناه بالدموع وقال : « كأنى أشاهد فى هذا المغنم والفىء هلاك العرب » ، ولم يكن فى الواقع مخطئاً فى حدسه إذ أن النجاح المنقطع النظير الذى أحرزه العرب أدى إلى ضياع أهم ميزاتهم — وهى تحمل مشاق الحياة وعنائها الشديد والتضحية بالنفس — تلك الميزات التى كانت فى الأصل عاملا من عوامل النصر والغلبة .

ولم يكد العرب يستولون على حلوان حتى عقدوا معاهدة صلح مع الفرس نص فيها على جعل سلسلة جبال فارس الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين وأصدر الخليفة أمره يحظر على جميع العرب اجتياز الحدود مهما تكن الظروف ؛ وبذلك أصبحت البلاد الممتدة من شمالى الخليج الفارسى حتى سلسلة الجبال شرقا فى أيدى العرب الذين فتحوا أيضاً فى ذلك الحين مرفأ « الأبلة » .

ليس ثمة ما ينهض دليلا على مقدرة « عمر بن الخطاب » كحاكم نافذ البصيرة يقيم الحق وينشر العدل ، ولا على كفاءة مجلس الشورى الذى كان يساعده فى

---

(١) يقال : إنه لما نظر إلى ياقوتة وجوهرة بكى . فقال عبد الرحمن بن عوف : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ وهذا موطن الشكر » . فقال : « والله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا ، فيلقى الله بأسهم بينهم » (المعرب)

تصريف شـؤون الدولة ؛ كـذلك النشاط الذى أظهره المسلمون فى إحياء تلك الولاية وتحسين مواردها ؛ فقد أمر الخليفة فمسحت الأرض ، وأدخل نظام جديد فى تقدير الضرائب وخفف العبء الملقى على كواهل الفلاحين ، وأبقوا على أملاكهم وأرضهم ؛ وخففت الضرائب التى كان ملوك الفرس قد فرضوها على الدهاقين ، وأصبحت فى البلاد شبكة كاملة من الترع والمصارف ، وصدر نظام لتسليف المزارعين كلما دعت الضرورة . كذلك منع الخليفة بيع الأراضى خشية انتزاعها من الفلاحين أصحاب البلاد الأصليين ، كما أمر فى الوقت نفسه بمصادرة الضياع الملـكية ، وغابات الصيد وأملاك الأمراء وكبار الأغنياء الهـاربين ، والأوقاف المحبوسة على معابد النار التى هجرها الـكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصا من المدينة .

وكان الجنود قد طالبوا بأن توزع عليهم هذه الأراضى وسهول كلدة المسماة بالسواد كأسلاب حربية ؛ غير أن أمير المؤمنين رفض تلبية طلبهم بحزم و إصرار شديدين ، واكتفى بتوزيع إيراداتها على العرب النـازحين بعد حسم النفقات العامة منها .

الفرس يخـلون بشروط المعاهدة

وقصارى القول لم يغن حزم أمير المؤمنين ولا نزاهة القواد العرب فتيلا فى الحيلولة دون نشوب حرب جديدة مع الفرس إذ ظل « يزدجرد » يحرق الأرم على ضياع عاصمة ملـكه ، وولايتين من أخصب ولاياته ، كذلك كان جيشه لا ينى عن الإلحاف فى الزحف على جند العرب . أما « الهرمزان » عامل الأهواز فكان يهاجم العرب النازحين ؛ والغريب أنه كان كلما منى بالهزيمة طلب الصلح ، ولـكنه برغم ذلك كان ينقض العهد عند سنوح الفرصة .

١٧ هـ ٦٣٨ م

وفى عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان فى العراق . « البصرة » على شط العرب ، وقد نزلها على الأغلب عرب الشمال وحلت محل « الأبلة » ، وأصبحت الثغر الجديد للعراق . والثانية « الـكوفة » ، وقد شيدت على الشاطئ

الغربى للفرات على بعد ثلاثة أميال من جنوبى الحيرة ، وقد استوطنها عرب يمانيون ، وحلت محل « المدائن » التى هجرها العرب بالمرة لسوء مناخها . ومما يذكر بهذا الصدد أن هاتين المدينتين شيدتا على مناهج منظمة ، فخططت فيها الشوارع والميادين العامة وبنى فى وسطها المسجد الجامع ، كما امتدت فيها الأسواق العامرة والحدائق الغناء .

والآن عندما ضاق العرب ذرعا بهجمات الفرس المتوالية ، ورأوا أن « يزدجرد » يستعد للقيام بهجوم خطير بدليل حشده الجيوش الكثيفة فى الشمال أرسلوا وفداً منهم إلى الخليفة يطلب إليه أن يسمح لهم بالهجوم فاستفسر « عمر » من الوفد عن سبب هجوم الفرس بقوله : « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى بأمور لها مما ينتقضون بكم » فقالوا . « مانعلم إلا وفاء وحسن ملكة » . قال : « وكيف هذا ؟ » . فقال له رئيس الوفد : يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا ، وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس[1] . وقد أيد هذا القول « الهرمزان » الذى كان قد حمل أسيرا إلى المدينة ثم اعتنق الإسلام ، وعندئذ فقط سمح أمير المؤمنين للجيش بالانسياح ؛ إذ ليس ثمة ما يمنع فى سبيل الدفاع عن النفس من سحق سلطان كسرى والاستيلاء نهائيا على بلاده .

أما الفرس فقد لبوا نداء مليكهم بقلوب مفعمة بالأمل واستعدوا إلى إنزال الضربة القاضية بالعرب الفاتحين الذين طردوا الملك من عاصمته وفصلوا عن مملكته

---

(١) ابن الأثير .

أخصب ولاياته ؛ وكان عدد الجيش الذى جمعه « يزدجرد » يفوق عدد أية حملة أخرى حشدها حتى الآن ؛ فأحدث خبر هذا الاستعداد قلقا بالغا فى المدينة ، وعندئذ سارع الخليفة ببعث الأمداد إلى الحدود ، وولى القائد النعمان الذى كان يقاتل أهل فارس فى الجنوب إمارة الجيوش العربية . وقد قررت موقعة « نهاوند » التى دارت على سفح جبل البرز مصير آسيا وسميت « بفتح الفتوح » فمنى الفرس بشر هزيمة مع أن عددهم كان يبلغ ستة أضعاف عدد جيش العرب ، وفر يزدجرد ضاربا فى الآفاق حتى فتك به أحد أتباعه فى قرية قريبة من تركستان ، وباندحار هذا الجيش وبموت يزدجرد عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

واقعة نهاوند

وفى الحال اتخذ الخليفة كما اتخذ فى الجزيرة من قبل تدابير فعالة لإقرار الفلاحين على حالتهم ، وإنقاذهم من ربقة العبودية وعسف كبار الملاكين (الدهاقين) ؛ وأصلح نظام الضرائب ، وأمر بترميم الجداول وشق الترع ، كما أقر الملاكين على أراضيهم على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وضمن حرية العبادة ، وحظر على المسلمين التعرض لدين أهل البلاد الأصليين ، وأطلق على الذين بقوا على دينهم القديم اسم « الذميين » . وكان الشىء الوحيد المغرى لاعتناق الإسلام — إن صح أن يسمى هذا إغراء — أن يدفع الذمى الجزية وهى ضريبة أكثر بقليل من العشر الذى كان يؤديه المسلم ، ولم تكن هذه الزيادة القليلة إلا لقاء إعفائه من الانخراط فى سلك الجندية ، فأخذ الناس يدخلون فى دين الإسلام طوعا على عكس ما تتخذه الدول العصرية من الأساليب لتغيير عقائد أبناء المستعمرات ؛ كذلك حصل التزاوج بين معتنقى الإسلام وبين العرب النازحين ، وسمى الكثير من الفرس بالموالى ، وكان الذين يؤدون أجل الخدمات للدولة تسجل أسماؤهم فى سجل خاص لمنحهم رواتب شهرية . وقد ظل الكهنة ردحا من الزمن كما كان شأنهم فى عهد الإسكندر

فتح فارس

المقدونى يقلقون مضجع الدولة الفتية ؛ إذ طالما حرضوا السكان الباقين على دينهم القديم ، على شق عصا الطاعة والولاء ، وكانت الدولة ترتكب فى سبيل القضاء على تلك الفتن أروع ضروب السفك والتنكيل ، غير أن السياسة الرشيدة التى اتبعتها الدولة العباسية من جهة وانتشار الإسلام بين السكان من الجهة الأخرى أزالا أسباب النفور والبغضاء بين المحتلين و بين أصحاب البلاد الأصليين

الحروب مع الروم وأسبابها

لم يطل الحال بعد مبايعة أبى بكر حتى خاض المسلمون غمار الحرب مع الروم ، وكانت البلاد الواقعة غربى الجزيرة وكلدة خاضعة وقتئذ للدولة الرومانية الشرقية . كذلك كان يقطن فلسطين وسوريا كما يقطن العراق شعب عربى . أما بادية الشام فكان يضرب فى آفاقها رعاة من الأعراب لم يلبثوا أن وقعوا تحت صولة الدولة الإسلامية ، ولذلك أثارت الحملة التأديبية التى قادها «أسامة» حفيظة القبائل العربية الضاربة فى الشام فقاموا بطبيعة الحال يثأرون لإخوانهم الذين تربطهم بهم أوشاج الدم ولحمة القرابة .

ولو نظرنا الآن بعين الخيال إلى ذلك الميدان الجديد الذى دارت فيه رحى القتال لنلم بشىء عن موقعه الجغرافى لرأينا فلسطين كما يصفها جغرافيو العرب بلاداً واقعة فى جنوبى الخط الممتد من جبل الكرمل إلى أقصى شمال بحر الجليل (بحيرة طبرية) ثم تمتد من نهر الأردن حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وقد كان للرومان فى تلك البلاد معاقل محصنة تحرسها حاميات قوية كقيصرية على البحر ، وأريحا ، والقدس ، وعسقلان وغزة ويافا ، أما مدينة سيفر (زوغار) والمنطقة الممتدة من أقصى جنوبى البحر الميت حتى خليج العرب فكانت تابعة لفلسطين كما كان يقع فى شمالى ذلك الخط ولاية الأردن التى تتألف من حاميتى عكا وصور .

كذلك كان يقع فى شمال فلسطين تلك البلاد الجميلة الخلابة التى أطلق عليها الرومان اسم سوريا وسماها العرب بر الشام أو الشام فحسب ؛ وأهم مدنها

التاريخية دمشق وحمص وحلب وانطاكية ؛ وكانت تحرسها كلها حاميات رومية قوية . وثمة بلاد مرتفعة فى شرقى وادى الأردن وجنوبى طبرية اسمها حوران ، وفى ذلك الميدان منى المسلمون بهزيمة منكرة فى أول حملة بعثها أبو بكر . ويجب أن نذكر هنا أن الخليفة بدلا من أن تخور عزيمته أخذ يثير النخوة فى صدور المسلمين ويبث فيهم روح الحمية والنشاط ؛ فقسم الجيش الذى سارع بارساله إلى ميدان القتال إلى أربعة كراديس (Corps) ، وعين لكل كردوس قائداً ؛ فكان أبو عبيدة الرقيق القلب على رأس كردوس حمص وقاعدته الجابية ، ومن جملة أفراده عدد كبير من المهاجرين والأنصار السابقين . أما كردوس فلسطين فكان بقيادة عمرو بن العاص فاتح مصر المشهور . وكردوس دمشق تحت إمرة « يزيد بن أبى سفيان » ، الذى كان يتألف معظم جيشه من أهل مكة وعرب تهامة ، وفيهم عدد من أشراف مكة الذين تصدوا للنبى وحاربوه ولكنهم وقد حفزتهم الآن مغانم الشام انتظموا فى عقد الجيش العربى بقيادة يزيد .

وكان بين أهل مكة وعرب تهامة من جهة وبين هؤلاء وأهل المدينة من الجهة الأخرى عداء شديد وحزازات قديمة ظهرت نتائجها بعد أمد قصير .

أما الفرقة الرابعة التى كانت بقيادة شرحبيل فكانت وجهتها وادى الأردن وكان ثمة كردوس آخر بمثابة الاحتياط على رأسه معاوية ثانى أولاد أبى سفيان .

زحف ابن العاص على فلسطين السفلى مهدداً غزة وبيت المقدس بينما أخذت الكراديس الثلاثة الأخرى بقيادة أبى عبيدة وشرحبيل ويزيد تناوئ بصرى[1] ودمشق وطبرية ، غير أن مجموع جيش المسلمين لم يكن ليزيد عن ٣٥٫٠٠٠ فبدا قلة لا يستطيع مناهضة جيش الروم الذى كان تحت إمرته موارد لا حصر لها من الجنود والعتاد .

(١) كان لها المكان الأسمى فى زمن اليونان والرومان ، وكان فيها الراهب « بحيرا » صاحب القصة المشهورة مع النبى (ص) قبل الرسالة وتعرف بصرى الآن باسم « اسكى شام » . (المعرب)

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الإمبراطورية الرومانية وعاصمتها القسطنطينية — حتى بعد أن انفصلت عنها الولايات الأوربية — كانت شديدة الحول متسعة الأطراف ، لا حصر لمواردها الطبيعية وكنوزها وأدواتها . فقد كانت تتألف من آسيا الصغرى (المحاطة بالبحار من جهاتها الثلاث ، والمبثوثة على سواحلها الموانئ الحافلة بضروب الغنى والثراء) والشام ، وفينيقية ، وفلسطين ، ومصر . وكانت جميعها تعتبر أسواقا هامة للأمم المتاخمة كما كان يدخل فى نطاقها الشق المستطيل الممتد من ساحل مصر حتى المحيط الهندى ، ومن ضمنه قرطاجنة التى عفا على آثارها الزمان .

ويقال إنه لما علم هرقل بزحف العرب أسرع إلى حمص وحشد فيها أربع فرق ، أما القواد المسلمون فلم يلبثوا هم أيضاً أن حشدوا قواتهم فى صعيد واحد فى « جولان » بالقرب من نهر اليرموك ، الذى يصفه لنا الجغرافيون بأنه نهر صغير ينبع من أعالى جبل حوران ويصب فى نهر الأردن على بضعة أميال من جنوبى بحيرة طبرية ، ثم يستدير على بعد ثلاثين ميلاً من التقائه بنهر الأردن ليكون شبه دائرة تحتضن سهلا فسيحاً منبسطا يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير . أما ضفافه فمنحدرة وعرة كذلك به انحناء يؤدى إلى فضاء مسطح يسمى بالواقوصة المشهورة فى تاريخ المسلمين . وقد رأى الروم فى ذلك الموقع معسكراً طبيعيا محصنا من أطرافه فحشدوا جيوشهم فيه دون أن يحسبوا حسابا للمسلمين الذين ما أن شعروا بخطأ عدوهم حتى عبروا النهر وعسكروا بجانب الوادى الضيق الذى يقع على استدارته وأعدوا عدتهم للهجوم على الأعداء حالما يخرجون من مكامنهم ، وراح الجيشان يتراقبان حوالى الشهرين حتى سئم الخليفة الانتظار وأرسل « خالداً بن الوليد » من كلدة ليلتحق بجيش المسلمين فى الشام ، وكان جيش هرقل يبلغ ٢٤٠٫٠٠٠ فى حين كان عدد جنود العرب لا يزيد عن أربعين ألفاً ؛ ولكن الروم بالرغم من كثرة عددهم كان

واقعة اليرموك
٣٠ آب ٦٣٤م

اليأس قد تسرب إلى أفئدتهم بعد أن فشلوا مراراً فى التخلص من الفخ الذى وقعوا فيه . وفى صباح آخر يوم من أيام جمادى الثانية المصادف ٣٠ آب سنة ٦٣٤ م وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين ، فحمل العرب عليهم حملة صادقة وظلوا يوقعون بهم حتى أفنوا البعض وأغرقوا البعض الآخر فى النهر ؛ وبهذا النصر تم للمسلمين فتح جنوبى الشام ، وسميت تلك الموقعة المشهورة بموقعة « اليرموك » .

وفاة أبى بكر

غير أن المسلمين نكبوا فى تلك الأثناء بوفاة أبى بكر ؛ ومن المأثور أن خبر موته كان قد وصل إلى المعسكر قبل نشوب القتال ، فلم يذعه خالد حتى كسب المعركة ، إذ جاء أمر الخليفة الجديد — الذى لم يكن ليرضى عن بعض تصرفات خالد — بعزله من القيادة العامة وبتعيين أبى عبيدة المشهور بأصالة الرأى وبعد النظر فى مكانه فاندمج « خالد » على الفور فى صفوف الجيش كأبسط جندى ، وأخذ يحارب تحت إمرة « أبى عبيدة » عن طيب خاطر ؛ وبدأت المدن السورية تقدم إليه خضوعها الواحدة تلو الأخرى فأسلمت دمشق وحمص وحماة وقنسرين وحلب والمدن المهمة الأخرى ؛ ومن ثم سار « أبو عبيدة » حتى نزل على « انطاكية » عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ومنافسة الآستانة . وتقول لنا الرواية العربية : إن الحامية العسكرية مع الجنود الملتجئين من المدن الأخرى التى سبق أن أذعنت بالتسليم للمسلمين زادوا فى عدد السكان زيادة عظيمة ، ولكنهم لم يتمكنوا بالرغم من ذلك من المدافعة عن المدينة إذ كانوا قد وهنوا من الانغماس فى ملذات الحياة ومسراتها ، فدارت بين الفريقين مناوشة طفيفة بظاهر المدينة أسفرت عن انتصار المسلمين .

وفيما كان « أبو عبيدة » يستولى شيئاً فشيئاً على القسم الأكبر من سوريا الشمالية ، كان « عمرو بن العاص » يحرز فى فلسطين النصر تلو النصر . أما الحاكم الرومانى المسمى « أرطبون » فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها كما

عزز فى الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه فى « اجنادين » إحدى القرى الواقعة فى شرقى القدس بين « الرملة » و بين « بيت جبرين » ولكن لم يمض سوى قليل حتى زحف القواد العرب عليهم واقتتل الفريقان قتالا لا يقل روعة عن قتال « اليرموك » فمنى الروم بشر هزيمة ، وتمزق شملهم كل ممزق .

وكان من ثمرة ذلك النصر أن أذعنت بالتسليم عدة مدن كنابلس و يافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا و بيروت وصيدا واللاذقية وحماة وكربلة دون أية مقاومة . ويقال إنه كان فى القدس وحدها حامية قوية قاومت العرب حينا من الزمن حتى أعان بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه ، وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ما تردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية . ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس ، فاستقبله على أبوابها البطريق « صفرينوس » ، فدخلها الاثنان وهما يتحادثان . ويقال إن الخليفة امتنع عن الصلاة فى كنيسة القيامة التى اتفق وجوده فى فنائها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها ؛ وقد قال الخليفة فى ذلك إنه لو صلى فى فنائها لنقض المسلمون العهد فى المستقبل بحجة الاقتداء به فى الصلاة ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها لوفد القدس . أما اليهود السامريون الذين كانوا قد ساعدوا المسلمين على الفتح فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب .

وعند ما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة قوة كبيرة فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب . أما هرقل فيقال إنه كان قد عقد اتفاقا مع المدن التى لم تكن قد أذعنت بعد لسلطان المسلمين ، ولكن الخليفة ما عتم أن أنفذ إليهم جيشاً كبيراً لمحاربتهم والإيقاع بهم . ويقول المؤرخون إن القبائل

العربية المسيحية انحازت فى تلك الأثناء إلى جانب الروم ، كذلك وصلت قوة كبيرة من مصر عن طريق البحر ، واستولت عنوة على شمالى فلسطين ، فتحرج بذلك موقف العرب ، وألفوا أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب غير أنهم بالرغم من ذلك تذرعوا بالبسالة والصبر ، واعتصموا بالسرعة فى الهجوم تحفزهم فى ذلك قوة الإيمان وشدة الحماسة ، ومع أن الروم كانوا يفوقونهم عشرين ضعفاً ، إلا أن العرب استطاعوا أن يقوضوا أركان ذلك الاتحاد و يلحقوا بهم أفدح الخسائر ، فانهزم ابن هرقل مع فلول صغيرة من جيشه ، وما هى إلا فترة حتى أذعنت البلاد ثانيـة لسلطان المسلمين ، ولم يبق فى حوزة الروم غير ميناء قيصرية فى شمالى الشام تشد أزرها مصر من جهة البحر ؛ وظلت تلك الميناء تتحدى جيش المسلمين حينا من الزمن حتى فر قسطنطين بن هرقل ، فضعفت بذلك روح المدافعين المعنوية ، وسلم أهلها على أن يعطوا أماناً لأنفسهم . و بفتحها تم إخضاع البلاد برمتها ، وطأطأت الشام هامتها أمام صولجان الخلافة بعد سبعمائة سنة من عزل آخر الملوك « المكدونيين » على أيدى بمباى .

ومع أن الروم كانوا قد أدركوا أنه لن تقوم لهم قائمة بعد تلك الهزيمة المنكرة إلا أنهم واصلوا شن الغارات . والأدهى من ذلك أنهم أرادوا أن يقيموا حدا فاصلا بين حدود الدولتين للحيلولة دون توغل العرب فيما تبقى لهم من ممتلكات فى آسيا الصغرى ، فحولوا بقعة خصبة مزدهرة بالمزارع والكروم على حدود ممتلكاتهم الأسيوية إلى صحراء قاحلة ودمروا جميع المدن العامرة فى تلك المنطقة السيئة الطالع كما هدموا الحصون ونقلوا السكان إلى الشمال وتركوها قاعا يبابا .

ولذلك فان ما يعزا إلى جيوش العرب من أعمال التخريب والتدمير لم يكن فى الواقع إلا نتيجة من نتائج وحشية الدولة البيزنطية . وبالرغم من تلك التدابير التى لا يمكن اعتبارها غير سياسة خرقاء وقصر نظر ، فقد اجتاز « إياس » قائد الجيش الغربى فى شمالى سوريا جبال طوروس وأخضع ولاية كليكيا وعاصمتها

طوروس[1] مقر ملوك أشور القدماء ، ثم توغل صعدا حتى سواحل البحر الأسود فأصبح اسمه مصدر رعب فى قلوب الروم قاطبة فى آسيا الصغرى . ومما يذكر أن العرب وجهوا همهم فى تلك الأثناء إلى تشييد أسطول بحرى ، فلم ينقض طويل وقت حتى أصبحوا سادة البحار ، واشتبكوا فى معارك رائعة مع أسطول الروم الذى فر منهم إلى هلسبون ؛ و بذلك تمكنوا من الاستيلاء على جزائر الأرخبيل اليونانى بالتدريج .

ولما كثرت الغارات التى كان الروم يشنونها من مصر على الشام ، وتعددت المناوشات بين أسطولى الروم والمسلمين فى عرض البحار ، قرر الخليفة بعد قليل من التردد أن ينفذ جيشاً إلى أرض الفراعنة ، فسار « عمرو بن العاص » فى ٤٠٫٠٠٠ ، واستولى بهذه القوة الضئيلة على مصر فى خلال ثلاثة أسابيع ، ثم تعقب فلول جيش الأعداء إلى الإسكندرية التى كانت تعتبر وقتئذ حصن حكومة الروم الحصين .

و بعد أن حاصر العرب تلك المدينة ردحا من الزمن فتحوها عنوة ، وأصبحت مصر حتى حدود الحبشة جنوبا وليبيا غربا خاضعة لسلطان المسلمين الذين اتخذوا أيضاً فى تلك البلاد نفس الإجراءات التى سبق أن اتخذوها فى الشام والعراق لتحسين موارد الفلاحين ، فأقروهم على أراضيهم وأصلحوا أعمال الرى القديمة التى عفا عليها النسيان ، وأمروا بكرى القناة القديمة التى توصل بين البحر الأبيض المتوسط و بين البحر الأحمر ، وعاملوا المسيحيين (الأقباط) معاملة ممتازة نظراً لما ثبت لهم من حسن نواياهم نحو المسلمين ونظموا الضرائب فازدهرت التجارة بتخفيض المكوس .

وفى سنة ٦٤٥ م أغار الروم على الإسكندرية واستولوا عليها عنوة ، غير أنها

---

(١) هى الآن من أعمال ولاية أطنه وفيها توفى ودفن المأمون . (المعرب)

سقطت بعد سنة فى أيدى العرب نهائيا . وأما قصة حرق مكتبة الإسكندرية[1] التى عزاها بعض المؤرخين إلى الخليفة عمر بن الخطاب فهى عارية عن الصحة ، إذ أن عملا كهذا لا يمكن أن يصدر عن حاكم عظيم عرف بالتساهل وحرية الرأى ؛ وفى الواقع أن قسما كبيراً من تلك المكتبة كان قد أبيد فى زمن الحصار الذى ضربه يوليوس قيصر على المدينة كما فقد الجزء الآخر فى عهد الإمبراطور تيودوسيس فى القرن الرابع الميلادى ؛ ويقال إنه كان مشهوراً بالورع والتعصب ومقته للكتب الوثنية فأمر بإتلاف بقية المكتبة فنفذت أوامره بحماس شديد بحيث لم يبق فى القرن السابع شىء يصح أن يتلفه المسلمون . وعقب احتلال مصر اشتبك « عمرو بن العاص » فى حروب مع القبائل الضاربة على الحدود الغربية انتهت بإخضاع الساحل برمته حتى مدينة برقة .

وفى سنة ١٨ هجرية أصيب الشام وشمالى جزيرة العرب بقحط شديد ووباء داهم هلك بهما على ما يقال نحو من ٢٥٠٠٠٠ نسمة وكان من ضحايا هذا الوباء نفر من أشهر رجال المسلمين وأبعدهم صيتاً « كأبى عبيدة » « ويزيد » « وشرحبيل » . فاستفزت صيحات المنكوبين وأنات المصابين أمير المؤمنين فسار لا يصحبه غير خادم واحد إلى الشام ، وكان قد ناهز السبعين ولكنه رغم شيخوخته تحمل وعثاء السفر بصبر عجيب وزار مطران « أبلة » وجدد له العهود واستطاع بوجوده بين أهل الشام أن يحيى فيهم موات الأمل ويهون عليهم شدة الألم .

وفاة عمر

ولما عاد « عمر » إلى المدينة تفرغ لتنظيم إدارة الإمبراطورية الجديدة وإعداد المشاريع وتحسين مصادر البلاد ولكن يدا أثيمة لم تمهله حتى يكمل

---

(١) يقول المؤرخ الرومانى بلوتارك (Plutarch) بينما كان الأعداء يستولون على أسطول قيصر اضطر أن يردم بالنار واندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة . (المعرب)

ما بدأ به فطعنه رجل أجنبي[1] — كان يحقد عليه — بخنجر طعنة مميتة ، ولما أشرف الخليفة على الوفاة جعل الأمر شورى فى ستة نفر لاختيار من يخلفه .

وقد كانت وفاته خسارة فادحة للمسلمين إذ كان الرجل لائقا بمعنى الكلمة لزعامة العرب البعيدين بطبيعتهم عن الانقياد للقانون ، وكان على الجملة شديدا ، عادلا ، بعيد النظر ، ملما بأخلاق شعبه ؛ فقبض بيد من حديد على دفة الأمور وأعنة الحكم وقمع بشدة ذلك الميل الفطرى المعروف عن أهل الصحراء وأشباه المتحضرين إلى الفساد إذا ما احتكوا بترف المدن ومفاسدها . كان أول من أسس « الديوان » أو مصلحة المال وأودعها شؤون الخراج ، كذلك وضع قواعد ثابتة لحكم الولايات . وكان فاره الطول قوى البنية ، أبيض البشرة زاهدا ، متقشفا ، بسيطا فى عاداته يجوب الأزقة فى الليل كى يتفقد أحوال المسلمين دون حرس أو حاشية .

هكذا كان أقوى حكام ذلك العصر وأشدهم بأسا وأعظمهم هيبة !!

---

(١) يقول بعض المؤرخين إنه مانوى ، ويقول البعض الآخر أمثال دورى إنه كان بناء مسيحيا من أهل الكوفة .